الفصل الخامس

خـلال هـذه الأوقـات العصيبـة، اكتشفـت المولِّـد الموجود في الدرّاجة الهوائية.

وقـد أَلِفْتُ مشاهدة مثل هـذه المولِّدات على الدرّاجات الهوائية، التـي كانت توصَل بالعجلة، وتشبـه علبة معدنية صغيرة، لكنّني لم أكن أُلقـي لها بالاً حينها. ولكن، في إحـدى الأمسيات، وصل صديق لوالدي إلى بيتنا يقود درّاجة هوائية تحوي مصباحاً يعمل بمولِّد. وقد انطفأ الضوء حالما ترجَّل عن الدرّاجة.

وفي واقع الأمر، لم أُشاهده يُغلِق مفتاحاً كهربائيّاً، فسألته:

لماذا انطفأ المصباح؟.

أجاب: **إنّه المولِّد؛ فقد توقّفت عن تحريك الدوّاسات.**

وحالمـا دخـل لمقابلة والدي، قفزت علـى درّاجته؛ لأُجرِّب الأمـر بنفسي، وأتحقّق من قدرتـي على إضاءة المصبـاح. وبعد قيادة الدرّاجـة أمتاراً عدّة، أضـاء المصباح. حينئذٍ، ترجَّلـت عن الدرّاجـة، ثُمّ قلبتهـا رأساً على عقب، ثـمّ أخذت أتتبع الأسـلاك الخارجة من المصبـاح إلـى الإطار الخلفي حيـث ثبِّت المولِّـد. كان للمولِّد عجلة معدنيـة مخصوصة به تضغط على المطاط. وحين أدرت الدوّاسة بيدي تحرّك الإطار، ودارت عجلة المولِّد، فأضاء المصباح.

لقد عَلِق هذا الأمر في مخيّلتي. كيف لعجلة تدور أن تُنتِج الضوء؟ وسرعان ما بدأت أستوقف كلّ مَنْ يستعمل مولِّداً لأسأله عن كيفية عمله.

سألت أحدهم ذات مرّة: **لماذا يضيء المصباح عندما تبدأ باستخدام الدوّاسات؟**

فأجاب: **لأنّ المولِّد يدور.**

قلت: **أعرف أنّه يدور. ولكن، كيف يعمل؟ ما السر وراء ذلك؟**

قال: **لا أعرف.**

فسألته: **هل يمكنني اللعب به؟**

فأجاب: **تفضّل.**

أدرت العجلة، وأخذت أُراقِب الضوء. وفي أحد الأيام، وعندما كنت ألعب بدرّاجة صديق والدي، لاحظت أنّ أسلاك المصباح (اللمبة) قد ارتخت. كانت العجلة تدور، فلمست أطراف المقبض المعدني من غير قصد، فرأيت شرارة، فاستنتجت من تلك الحادثة فكرتي اللاحقة.

ففي ظهيرة أحد الأيام، استعرت أنا وجيفري الدرّاجة نفسها. وبعد أن قلبناها رأساً على عقب، وأوصلنا الأسلاك إلى القطبين السالب والموجب في المذياع؛ أي مكان البطاريات؛ أدرنا الدوّاسات، لكنّ شيئاً لم يحدث قطّ. قمت بعدها بإيصال الأسلاك بقاعدة مصباح المولِّد مباشرة. وعندما حرّك جيفري الدوّاسات هذه المرّة، أضاء المصباح. ثمّ أخذت البطاريات التي كنت قد نزعتها عن المذياع، وكدّستها معاً، ثمّ وصلتها بالمصباح بسلك منفصل، فأضاء المصباح مرّة أخرى.

قلت: سيد جيفري، لقد أظهرت تجربتي أنّ المولِّد والمصباح يعملان على نحوٍ جيد. فلِمَ لا يعمل المذياع إذن؟

أجاب: لا أعرف، جرِّب وصلها هنا.

وكان يشير إلى تجويف في المذياع، كُتِب عليه (**ايه سي**). وعندما أدخلت الأسلاك فيه، اشتغل المذياع، فصرخنا من شدّة الحماس. وحين كنت أُدير الدوّاسات، تمكّنت من سماع

بيلـي كاونـدا العظيم يعزف موسيقاه البهيجة عبر محطة راديـو تو، الأمر الذي دعا جيفري إلى الرقص.

قال: **استمر في إدارة الدوّاسات. أحسنت، استمر.**

قلت: **وأنا أريد الرقص أيضاً.**

قال: **انتظر دورك.**

كنـت قد اكتشفت مـن دون أن انتبه الفرقَ بين التّباين؛ المتنـاوب والمستمر. ولم أكن أعرف ما يعنيه ذلك إلّا بعد مدّة.

وبعـد إدارة دوّاسات الدرّاجة المقلوبة بيدي بضع دقائق، أصاب التعب ذراعي، فتوقّف المذيـاع عن العمل تدريجيّاً. لذا، بدأت أُفكِّر في شيء يمكنه إدارة الدوّاسات لنا لأتمكّن من الرقص أنا وجيفري؟

لقـد منحنـي المولِّد بعض الكهرباء؛ مـا حفزني إلى تعـرّف كيفية توليدهـا بنفسي. يُذكَـر أنّ الكهرباء تصل إلى مـا نسبته 2 % من مالاوي فقط، الأمر الذي يُعَدّ مشكلة كبيرة. فغيـاب الكهرباء يعني غياب الضوء الذي يحول دون فعل أيّ شيء في أثناء الليل؛ كالدراسة، وإصـلاح أجهزة المذياع، فضلاً على رؤية الصراصيـر والفئران والعناكب التي تزحف على الجدران والأرض في الظلام. فما إن تغيب الشمس، ويختفي ضوء القمر، حتى يوقِف الجميع أعمالهـم، ثـمّ ينظِّفون أسنانهم، ثـمّ يخلدون إلى النوم. أنا لا أتحـدث هنا عن شيء يحدث الساعة العاشرة ليلاً، أو التاسعة، إنّما السابعة مساء! فمَنْ يخلد إلى النوم في هذه الساعة؟ حسناً، أستطيع أن أجيبكم: **معظم سكان إفريقية.**

لقـد استخدمت عائلتـي، شأنها في ذلك شـأن معظم العائلات، سراجـاً يعمل بالكاز لتلمّـس طريقهـا في أثنـاء الليل. ولم يكن ذلـك السراج سوى عبوات حليـب مجفّف من نوع نيـدو، مضـاف إليها فتيلة من قماش، تُمـلأ بالوقود، وتُغلق فوهتها بالثنـي. فقد كان الوقود باهظ الثمن، وكان المكان الوحيد الذي يبيعه بسعر معقول هو محطة وقود في متونثاما التي تبعد سبعة كيلومترات. أصدر السراج دخاناً أسود كثيفاً يحرق العينين ويسبِّب السعال. أجل،

يمكنـك شراء فانوس زجاجي بغطاء يقي من الدخان، لكنّ معظم الناس لا يستطيعون تحمّل ثمن هذا النوع من المصابيح.

تعمـل الحكومة على تزويد البلد بالطاقة عن طريق شركة مالاوي لتزويد الكهرباء التي تولّـد الكهرباء بوساطة مولّدات موجـودة على نهر شاير في الجنوب؛ وهو شيء آخر يفتنني، وسأتحدث عنه لاحقاً.

إذا كنـت تملك مـالاً وكثيراً من الصبر، فيمكنك الطلب إلـى الشركة إيصال الكهرباء إلـى بيتك عـن طريق الأسلاك. يتعيّن عليـك أولاً أن تركب شاحنة إلـى كاسونغو، ثمّ حافلة صغيرة، والسير مسافة مئة كيلومتر حتى تصل الحافلة إلى العاصمة ليلونغوي، حيث مكاتب الشركـة في ماجيستي هاوس. وفيها تدفع بضعة آلاف من الكواتشا لأحد الموظفين، بعد أن تمـلأ طلباً، وترسم لهم خارطـة لبيتك؛ كي يتمكّنوا من إيجـاده. وإذا حالفك الحظ، فربّما يُوافَـق على طلبـك، ويتمكّن العمّال من إيجاد بيتك لتركيب العمـود والأسلاك؛ وهي معدّات يتعيّـن عليك أنت تحمّل ثمنهـا. وحين تصلك الطاقة أخيراً، فإنّـك تشعر بالسعادة لتمكّنك مـن البقاء مستيقظاً حتـى الساعة العاشرة مساء، وتظلّ ترقص علـى الأنغام الصادرة من المذياع، إلى أن تقرّر الحكومة قطع التيار، وهو أمر يحدث كلّ أسبوع، ويكون عادة بعد هبوط الظـلام. وبـذا، يشعر المرء بعدم الجدوى مـن كلّ المال الذي دفعـه، والمجهود الذي بذله لإيصال الكهرباء، ويرى أنّ الخلود إلى النوم عند السابعة مساء هو أفضل الطرق وأسهلها.

تُسهـم إزالـة الغابات في مشكلة الطاقة أيضـاً. فقد أخبرني جدّي ذات مـرّة أنّ بلدنا كانـت مكسـوّة بالغابات في الماضي، حتـى إنّ الطرقات كانت تبدو مظلمـة وقت الظهر من كثافـة الأشجـار. لكنّ استحواذ شركة التبـغ على معظم الحطب سنيـن طويلة، واستخدامه لمعالجـة الأوراق قبـل عرضهـا في المزاد، كلّ ذلـك أسهم في تدمير هذه الثـروة الوطنية. إضافـة إلـى أستخدام عمّال التبـغ المحليين مزيداً مـن الأخشاب في بنـاء أكواخ لتجفيف الأوراق فيها، لكنّ تلك المباني لم تكن تصمد أكثر من موسم بسبب النمل الأبيض. أمّا بقية الحطـب فاستخدمه بقية الناس للطبـخ، لأن الكهرباء غير متوافرة. وقـد تفاقمت المشكلة فـي المناطق المحيطة بويمبـي، لدرجة أصبح معها قطع مسافة خمسـة عشر كيلومتراً على

الدرّاجة الهوائية لإيجاد بعض الحطب أمراً معتاداً. لكنّه غير عملي؛ فكم ساعة يمكن الإفادة من كومة حطب مثلاً؟

القلة يدركون حقيقة أنّ قطع الأشجار هو أحد أسباب فقرنا نحن معشر المالاويين؛ فمن دون الأشجار، تتحوّل الأمطار إلى فيضانات تجرف التربة والمعادن الموجودة فيها، حيث تستقر التربة –فضلاً على كميات كبيرة من النفايات – داخل نهر شاير، وتتسبَّب في إغلاق السدّ بالطمي والنفايات، ما يؤدي إلى توقّف المولِّد عن العمل. عندئذٍ، تضطر محطات الكهرباء إلى إيقاف عملياتها كلها لجرف النهر، الأمر الذي يتسبَّب في انقطاع التيار. ولما كانت تلك العملية مكلفة جدّاً، تقوم شركة الكهرباء باستيفاء رسوم إضافية، ممّا يجعل تحمّل نفقات الحصول عليها أمراً صعباً. وبذا، فمع غياب المحاصيل بسبب الجفاف والفيضانات، وغياب الكهرباء بسبب الانسدادات وغلاء النفقات، يقوم كثيرٍ من الأشخاص بإعانة عائلاتهم عن طريق قطع الأشجار، واستخدامها حطباً في الطهو، أو بيعها فحماً. على هذا المنوال تجري الأمور هنا.

كان أحد خطوط الكهرباء تلك يُغذّي شركة التبغ القريبة، ويُزوِّد بيت جيلبرت بالكهرباء أيضاً؛ إذ كانت عائلته قادرة على تحمّل ثمن العمود والأسلاك، ولا سيّما أنّ والده كان زعيم بلدة ويمبي. حين زرت جيلبرت أول مرّة عندما كنت صغيراً، رأيته يدخل بيته ويلمس الجدار، فإذا باللمبة تضيء، فقط بمجرّد لمسه الجدار! وأعرف الآن – بالطبع – أنّه كان – ببساطة – يضغط على زرّ إشعال الضوء. وكنت، بعد ذلك اليوم، كلّما زرت جيلبرت وشاهدته يلمس الجدار فكّرت مع نفسي متسائلاً: **لماذا لا أستطيع لمس الجدار للحصول على الضوء؟ لماذا أضطر إلى البقاء في العتمة، والبحث عن عود ثقاب؟**.

وفي واقع الأمر، فإنّ إيصال الكهرباء إلى بيتي يتطلّب أكثر من مجرّد مولِّد درّاجة هوائية، علماً بأنّ عائلتي لا يمكنها تحمّل ثمن أحدها. لذا، توقّفت عن التفكير في الموضوع بعد مدّة؛ للتركيز على أشياء أهم، مثل: التخرّج من المدرسة الابتدائية.

في منتصف شهر أيلول، وزَّع المدرِّسون في مدرسة ويمبي الابتدائية – بعد طول انتظار– أوراق الامتحان النهائي، متمنّين لنا التوفيق. وكنت قد درست بجدّ في الأشهر القليلة الماضية التي سبقت الامتحان؛ إذ كنت أُشعِل السراج وأسهر لوقت متأخّر، وأنا أُراجِع

مـا ورد من تمارين في كتب السنوات السابقة؛ لأنّ امتحان المعايير الثمانية يشمل كلّ شيء. وقـد انكببت على دروس الزراعة متذكّراً التقنيـات الصحيحة لتهيئة الأرض لزراعة الجوز، والأنواع المختلفة لسجلات المَزارع، وكيفية تعرّف أكانت دجاجتك مصابة بالطاعون الطيري أو جـدري الدجاج؟ أمّا العلوم الاجتماعيـة والبيئية، فقد راجعت دور الموظفين الحكوميين، والسياسيـين، ودور السلطـة القبلية فـي المنظومة الإدارية للمنطقة. ولمـا كانت دروس لغة تشيتشيـوا سهلة، فقـد قضيت معظـم الوقت المخصّص لهـا في دراسة اللغـة الإنجليزية؛ بكتابـة الجمل، ومراجعة القصص. وكانـت إحدى القصص المفضّلة لـديّ هي (**رحلة إلى مالوكويتي**) التي تتحدث عن صبي يُدعى يمبي دودو، خرج لصيد الطيور ذا صباح، وتعرّض للاختطـاف مـن كائنات فضائية، أطول من شجرة، وأعرض من فيل، ولدى كلّ منهم ثلاث أعيـن. وقـد اقتادته هذه المخلوقات على متن سفينتهم الفضائيـة، وأكلوا طيوره. لا يمكنني تخيّل حدوث شيء مثل هذا.

قدّمنـا الامتحانات على مدار ثلاثة أيام؛ إذ كانت مادتـا الدراسات الاجتماعية واللغة الإنجليزيـة في اليوم الأول، ولغة تشيتشيوا والرياضيـات في اليوم الثاني، والعلوم التمهيدية فـي اليـوم الثالث. مرّت الأيـام الثلاثة بسرعة بيـن الصفحات المتلوّنـة بالأبيض والأسود، وأقلام الرصاص المكسورة، وبعض الأسئلة الغريبة.

وقـد اعتـدت أن أقضـم أظافري في أثناء حـلّ المسائـل المتعلقة بالنسـب والمثلثات المتساويـة الأضـلاع، ومحيط الدائـرة. كانت أعصابـي منهكَة مع نهايـة الامتحان، لكنّني شعـرت بثقة كبيـرة. وقد جرت العادة أن تُعلَـن النتائج في شهر كانـون الأول؛ أي بعد ثلاثة أشهر طويلة.

وفـي حال تمكّنـت من اجتياز الامتحـان، فسيسمح لـي أخيراً بالانخـراط في مدرسة متوسطـة تختارهـا الحكومة. ويوجد ثـلاث مدارس داخلية فقط من أصـل ست مدارس في المنطقـة كلّها. يعرف الجميع أنّ الحكومة تقصر تمويلها على المدارس الداخلية فقط. لذا، فمـن الطبيعـي أن يرغب أيّ طالب جادّ في الالتحاق بها. لقـد كان العيش وحدي في مدرسة حلماً رائعاً لا يفارِق مخيّلتي.

ولكـن، بغضّ النظر عن المدرسة التي سألتحق بهـا، فإنّ الدراسة تبدأ في شهر كانون الثاني. ويمثّل ذلك الأمر إشارة واضحة إلى أنّك أصبحت رجلاً. وفي المقابل، كان الالتحاق بالمدرسـة المتوسطة يتطلّـب دفع رسوم محدّدة. لـذا، فإنّها لم تلقَ إقبـالاً من المالاويين. كانـت شقيقتي الكبرى آني ترتاد مدرسة متوسطة في متونثاما، وقد أنهت نصف المتطلّبات حتى الآن. كنت أغار منها كثيراً، لكنّ وقتي قد حان الآن. وكان الأمر يمثّل بالنسبة إليّ طريقاً نحـو علامـة أخرى بارزة أيضـاً؛ إذ سيمكنني أخيراً التخلّص من ارتـداء السروال القصير المخصوص بأطفال المدارس الابتدائية، والمشي مرتدياً بنطالاً.

بعد انتهاء الامتحـان، انتظرت غيلبرت في الخارج. وعندما غادرنا المدرسة، قلت له: **سنودّع السراويل القصيرة يا رجل.**

فقـال: **طبعـاً، لقد أصبحنـا أحراراً في الصبـاح حتى يحين موعد بـدء الدراسة مرّة أخرى. فماذا سنفعل؟**

قلت: **لنذهب إلى الصيد. فنحن لم نقم بذلك منذ زمن.**

قال: **بكلّ تأكيد.**

وعلـى الرغم من أنّني كنت أستمتع بالعطلـة المدرسية، فإنها كانت تفقد بهجتها كلّما تقدّمـت في السنّ؛ إذ كان هنالك دائماً كثير مـن العمل في المزرعة، وكان والديّ في حاجة إلـى مساعدتي، فضلاً عن تنظيف الأرض والأثلام استعداداً للبذار، فقد كان شهر أيلول هو موعـد تحضير التبغ وإعداده للزراعة. يُذكَر أنّ فسائل التبغ تحتاج إلى حُبّ ورعاية أكثر من الذرة حتى تنمو قوية.

وكمـا ذكـرت آنفاً، فإنّ فسائـل التبغ تُـزرَع أولاً في مشاتل قرب الدامبـو؛ حيث التربة خصبة جدّاً. ولأنني أنهيت الدراسة الآن، فقد أصبحت وظيفتي الذهاب إلى الدامبو كلّ يوم، وريّ النباتات اليافعة من النبع، مع الحرص على منح كلّ منها كمية الماء نفسها؛ لكي تتمكّن مـن الدفاع عن نفسها من أشعـة الشمس. لقد واظبت على فعل ذلك حتى شهر كانون الأول، وهو الموعد المحدّد لقلع النباتات ونقلها إلى الحقل.

وبعد أن أنهيت العمل في المشاتل أواخر أيلول، ذهبت برفقة غيلبرت إلى السوق التجاري للعب الباوو، ثمّ قفلنا راجعين إلى بيته. ولدى وصولنا، لاحظت شيئاً غريباً يسود المكان؛ إذ تجمّع بعض الأشخاص في باحة البيت، متفيِّئين بظلال بستان اليوكاليبتوس، ومتحدثين بصوت خافت، وقد بدا على مُحَيّاهم طابع الجدّية. وكان من بين الحضور بعضُ الرجال، لكنّ جُلَّهم كان من النساء اللاتي ربطن رؤوسهنّ بالمبانغو ذي الألوان الزاهية، وحملن سلالاً فارغة. لم يَبْدُ غيلبرت متفاجئاً من هذا المنظر، فسألته عن ماهيتهم.

فأجاب: **إنّهم قرويون يعيشون في الغابة، وقد نفد طعامهم. لقد جاؤوا إلى والدي طلباً للعون أو الغانيو. وقد سار بعضهم أياماً عدّة للوصول إلى هنا.**

يُذكَر أنّ كلمة «**غانيو**» تعني الأجر بالمياومة، وكانت تلك هي الطريقة التي يعتاش بها كثير من الرجال في مالاوي، في أثناء موسم الجوع عند شحّ مؤونتهم الغذائية، حتى إنّ والدي اضطر – أحياناً – إلى العمل بنظام الغانيو في شركات التبغ؛ وذلك بحفر الأثلام لقاء بعض كيلوجرامات من دقيق الذرة. وبوجه عام، كانت الشركات الموجودة في المنطقة تسمح بالعمل بحسب نظام الغانيو؛ ما يتيح للجميع تدبّر أمورهم. لذا، فقد كانت رؤية أولئك الأشخاص هنا أمراً محيِّراً.

سألت غيلبرت: **لماذا لا يعملون هناك (لدى هذه الشركات)؟**

أجاب: **لقد حاولوا ذلك. ولكن، حتى الشركات لا يمكنها تقديم شيء هذا العام.**

قلت: **ماذا سيفعل والدك إذن؟**

قال: **سيطعمهم، ليس لديه خيار آخر، فهو زعيمهم.**

لقد كان الأمر صحيحاً، فقد كانت إيرادات محاصيل الذرة في القرى النائية أقلّ من إيراداتنا خلال حدوث الفيضانات والجفاف، ونفدت مخزوناتهم بعد أربعة أشهر فقط. وسرعان ما أصبح شحّ الطعام لدى الجميع الموضوع الأكثر تداولاً في المركز التجاري.

وفي أحد الأيام، طلبت إليَّ أمي شراء الملح من متجر السيد باندا، فسمعته يتحدث عن موضوع نقص الغذاء. وكان السيد باندا قد اعتاد بعد موسم الحصاد في شهر حزيران من

كلّ عام، زيارةَ كثير من القرى الممتدة حتى كاسونغو؛ بغية شراء كميات كبيرة من الذرة، ثمّ بيعها في موسم الجوع بسعر مرتفع عادة. ولكنّ الصوامع كانت فارغة هذا العام أيضاً. وقد علَّق على ذلك، قائلاً: **ذهبت إلى ماساكا لكنّني لم أجد شيئاً لشرائه، وعلى هذه الحال في تشيمبيا أيضاً، مع أنّه يكون لديهم فائضٌ عادة. لم أُصدِّق ما رأيته حقّاً».**

أخبـرت والدي بما حدث في بيـت جيلبرت، وما قاله السيد باندا. فقال: إنّه على دراية بذلـك، وإنّه لا يتعيّن علينا أن نقلق. وقـد دأب الناس على شراء بعض الذرة من شركة برس الزراعيـة الكبيـرة في موسم الجوع؛ إذ عملت هذه الشركـة على زراعة محصول مخصوص بها، وجني المال من بيع فائض الإنتاج. وقد أخبرت والدي بالمقولة التي يتداولها الناس في المركز التجاري، ومفادها أنّ الشركة خاوية على عروشها.

فقـال لي: **لا بأس، فالحكومة لديها فائض في المخزون. وإذا تعذّر على شركة برس تسييـر الأمـور فستأخـذ الحكومـة الـذرة إلى شركـة إدمـارك (شركة تسويـق المنتوجات الزراعية)، حيث يمكن للناس شراء حاجتهم من هناك.**

يُذكَـر أنّ إدمارك هي شركة حكومية تبيع الذرة في الأسـواق بأسعار تفضيلية، بعد أن تحصل عليها من فائض محصول مَزارع الحكومة.

كانـت فروع شركة إدمارك منتشرة في منطقتنا، وكان بإمكان أيّ شخص التوجّه إليها لشراء بضعة كيلوجرامات من الذرة بسعر معقول.

قال والدي: **لا تدع هؤلاء الناس يثيرون خوفك. لن نجوع مهما حصل.**

ولكـن، في ظهيرة أحـد أيام نهاية شهر أيلول، عاد والدي إلـى البيت، وسمعته يتحدث إلـى والدتي. كان قد عـاد للتو من تجمّع في المركز التجاري، دعا له حزب المؤتمر المالاوي المعارض الذي يرأسه المُزارِع الأول الرئيس باندا. وقد حضر هذا التجمّع آلاف الأشخاص، ووقـف مسؤولون من المعارضـة على المنصة، وألقـوا خطابات حماسيـة بوساطة مكبّرات الصوت. ثمّ حاول بعض أتباع (بلطجية) الرئيس مولوزي (يُطلَق عليهم اسم الديموقراطيين الشبـاب) إيقاف التجمّـع، لكنّ مُزارعين من قـرى مختلفة وقفوا سدّاً منيعـاً أمام المنصة للسماح للمعارضة بالكلام.

وقد نقل هؤلاء الرجال أخباراً مروِّعة؛ فقبل شهور عدّة، قام أتباع الرئيس مولوزي ببيع فائض المحصول؛ بغية جني الأرباح. ثمّ نُقِل معظمها عبر الحدود في شاحنات باتجاه كينيا. وفُقِدت ملايين الكواتشا من دون أن يتحمّل أحد من الحكومة المسؤولية.

قال والدي حينها: **يقولون: إنّ الفائض قد اختفى. ستحلّ هذا العام كارثة تطالنا جميعاً.**

فقالت والدتي: **كلّ ما نستطيع فعله هو الإيمان بالله تعالى.**

أمّا ما حدث فكان كالآتي: تسبَّبت الفيضانات والجفاف من العام المنصرم في نقص حادّ في الغذاء، على نحوٍ أكبر ممّا كان يعتقد الناس. و مارس المجتمع الدولي (صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي تحديداً) ضغوطاً على الحكومة لكي تسدِّد بعضاً من ديونها، ببيع جزء من احتياطيات الحبوب؛ لأن تخزينها كان مكلفاً. وبدلاً من ذلك، باع بعض موظفي الحكومة الفائض كلّه، من دون ترك أيّ شيء لحالات الطوارئ. وفي واقع الأمر، لم يعرف أحد أين ذهب المخزون. يقول بعضهم: إنّه عبر الحدود باتجاه كينيا وموزمبيق. في حين يقول بعض آخر: إنّ جزءاً كبيراً منه أُخِذ إلى إدمارك كما جرت عليه العادة، لكنّ الموظفين الفاسدين هناك خزّنوه مدّة طويلة حتى أصبح غير صالح للاستهلاك. وما لا شكّ فيه أنّ معظم الذرة الجيدة كانت تُباع لكبار التجار الذين يملكون صلات مع الحكومة؛ أي أنّهم تنبّأوا بحدوث النقص، فأرادوا استغلال هذا الوضع المتردي، واحتكار السوق. لذا، انتظروا حتى نفاد الطعام لدى الجميع، ثمّ رفعوا الأسعار إلى الضعف.

كان والدي محقّاً؛ إذ كنّا على وشك التعرّض لكارثة. ولكن، حتى هو كان يجهل مدى السوء الذي ستؤول إليه الأوضاع مستقبلاً.

وكما كان متوقعاً، فقد بدأ سعر الذرة بالارتفاع في الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول بمقدار الضعف ليصبح سعر الحزمة ثلاث مئة كواتشا بعد أن كان سعرها المعتاد في ذلك الوقت مئة وخمسين؛ ما دفع الناس إلى البحث عن مصادر أخرى للغذاء.

كانت معدتي تقرقر في ظهيرة أحد الأيام قبل العشاء، فذهبت إلى بيت جارنا السيد موالي لأرى إن كانت لديه بعض ثمار المانجو الناضجة على أشجاره. وحين وصلت هناك،

كان موالـي وعائلتـه جالسين على وشـك تناول الطعام، فقلت: **هـا، نديما ليمـا. إنّه توقيت جيد؛ فقد وجدت الطعام، أليس كذلك؟**.

بعـد أن قلـت ذلك، لاحظـت أنّهم يغمسـون أوراق اليقطيـن بالمانجـو المطهوة. وفي الحقيقـة، فقد كانت المانجو غير ناضجـة؛ عرفت ذلك من لونها الأخضر الذي يؤكّد مرارة طعمها في الأغلب. إنّها لم تكن ناضجة للأكل بعد.

قـال موالي ضاحكاً: **أنـتَ تقول نديما ليما. ولكن، كما تـرى فإنّنا نأكل المانجو بدل السيما. لا يوجد طعام حقيقي هنا.**

شاهـدت لاحقاً صفّـاً من الرجال الذين لا أعرفهم، والذيـن كانوا يحفرون الأثلام في حقول موالي. لقد جاؤوا من قرى أخرى، إنّهم نفس الأشخاص الذين تجمّعوا سابقاً في بيت غيلبـرت. وحين غادروا بعد ساعات، كان كلّ منهم يحمـل حفنة من ثمار المانجو الخضراء غير الناضجة لقاء عمله.

وبينمـا كنت أتمشى في المركز التجاري بعد ذلـك بأيام، لاحظت شيئاً آخر لم أره من قبل؛ إذ نصبت بعض البائعات خيماً بلاستيكية على قارعة الطريق لبيع **الغاغا**. والغاغا هي القشـور أو التبن الذي يغطّي لبّ عرانيس الذرة. وعادة ما تُفصَل تلك القشور في الطاحونة، ثـمّ تُرمـى أو تُباع علفاً للبهائـم (كانت تعدّ طُعمـاً مثاليّـاً بالنسبة إليّ عند صيـد الطيور). تُستخـدَم الغاغـا أيضاً في صنع خمر الكاتشوسو الذي يحبّه جـدّي كثيراً، حتى إنّ كثيراً من النساء يستخدمنها في إشعال النار للطهو. وقد سمعت أنّ هنالك أناساً يعانون فقراً مُدقعاً، ويأكلون الغاغا في أوقات العسرة، مع أنّها لا تحتوي إلّا على قليل من العناصر الغذائية. وبذا، فهـي لا تُعَدّ طعاماً مناسبـاً. فنحن نطعم الغاغا لدجاجنا ونشتريهـا بعد جمعها عن أرضية الطاحونة بأنفسنا.

وبعد أن أصبح سعر حزمة الذرة ثلاث مئة كواتشا الآن، رأيت أكياساً ضخمة من الغاغا تُبـاع بمئـة كواتشا للكيس الواحـد؛ أي عشرة أضعاف سعرها قبل شهـر. وقد احتشد الناس وتدافعـوا رافعيـن دلاءهم المعدنية للحصول علـى بعض منها. وممّا سمعتـه قول إحداهنّ: **ابتعدي، أنا جئت أولاً**.

وقالت أُخرى: **كلّنا جياع يا أختاه، لا يوجد دور في ذلك.**

كان الوضع مشابهاً أسفل الطريق. فعندما عدت بعد ساعة، كانت الغاغا قد نفدت. حينئذٍ، انتابني شعور بالصدمة؛ كأنّ أحداً أيقظني من النوم هزّاً عند منتصف الليل، فبدأت أركض نحو البيت بأقصى سرعة.

كانت والدتي تطهو لنا الطعام على مدار أشهر من دون أيّ تغيير يُذكَر. وكنت أنا وشقيقاتي نحصل على أطباق عصيدة الذرة كلّ صباح قبل البدء بمهامنا. كنّا نتناول السيما وقت الغداء والعشاء مع الخردل أو الفول. ولما كنت في سنّ الثالثة عشرة، فقد كانت شهيتي للطعام كشهية سياسي سمين، وكنت دائماً أملأ طبقي قدر الإمكان. صحيح أنّني كنت أعي الظروف التي تلت الجفاف والمحاصيل القليلة والأخبار التي تبثّها المعارضة، لكنّني كنت أشعر أنّ تلك الظروف لا تعنيني.

كنت أُردِّد في أثناء العشاء: **قليلاً بعد. هكذا تماماً، استمري.**

ولكن، بعد أن رأيت الناس يتشاجرون للحصول على الغاغا، اتسعت حدقتا عينيّ، وتسلّل خوف عظيم إلى نفسي، ثمّ ركضت أسفل الطريق باتجاه بيتي، لقد كان شعوراً نابعاً من مكنونات نفسي؛ كأنّ قبضة تُمسِك بمعدتي. وحالما وقفت أمام باب المخزن، أصبحت القبضة أشدّ. فمن بين خمسة أكياس ملأناها بالحبوب، تبقّى اثنان فقط، حتى إنّ الاثنين كانا قد انتهيا بالنسبة إليّ.

وفي أثناء تحديقي بالأكياس، حاولت حساب كمية الدقيق المتبقية لدينا: إنّهما كيسان يساويان ستة دلاء، والدلو يساوي اثنتي عشرة وجبة لعائلتنا؛ ما يعني أنّ ستة دلاء تساوي اثنتين وسبعين وجبة تكفي أربعة وعشرين يوماً. ثمّ أحصيت عدد الأيام التي تسبق الحصاد الآتي: أكثر من مئتين وعشرة أيام، منها مئة وعشرون يوماً – في الأقل– قبل أن تصبح عرانيس الذرة الخضراء يانعة، بحيث نأكلها من دون أن تسبِّب لنا المرض.

بقي مئتان وعشرة أيام حتى نحصل على الطعام، ونحن لم نزرع البذور بعد. وحتى بعد زراعة البذور، فلا شيء يؤكِّد حتمية نزول المطر، أو الحصول على السماد. وما تبقّى لدينا الآن يكفينا مدّة شهر فقط. لذا، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية العيش بعد ذلك. وما

يؤكّـد ازدياد الأوضاع سوءاً أنّ الدقيق الذي جلبتـه والدتي من الطاحونة في المرّة الأخرى، كان جافّـاً ومليئـاً بالغاغا، شأنها في ذلك شأن الآخريـن؛ إذ بدأ الجميع يطحن حبوبه بتلك الطريقة بغية زيادة الكمية.

وبعد أيام عدّة، شاهدت والدي يجمع قطيع الماعز خاصتنا لبيعه في السوق. كنّا كحال معظـم المالاوييـن نعتمد على ماشيتنـا بوصفها مصدراً للثروة والجاه فـي هذا العالَم، وها نحن ذا على وشك بيعها لقاء بعض دلاء من الذرة. لقد أصبح الرجال الذين يديرون أكشاك شواء الكانينيا أصحاب سلطة كبيرة الآن؛ ما يعني أنّ بإمكانهم تخفيض الأسعار متى شاؤوا. كان أحـد حيوانـات الماعز يُدعى مانكهالالا، وهـو ذكر صغير ذو قرنيـن طويلين، وقد كان المفضّـل عندي. كان يدعنـي أمسك قرونيه لنتصارع، ويتسلّى مـع كهامبا أيضاً، ويسمح له بملاحقته.

- أبتِ، لماذا ستبيع معازنا؟ أنا أحبها.
- كان سعرهـا خمس مئةٍ الأسبـوع الماضي، وقد أصبح الآن أربع مئةٍ فقط. أنا آسف، ولكن ليس بمقدرونا الانتظار لتنخفض الأسعار أكثر من ذلك.

كان مانكهـالالا والآخـرون مربوطيـنَ من أقدامهـم الأمامية بحبل طويـل. وحين سار والـدي أسفـل الطريق، بدأ القطيع يتعثّـر وينوح. لقد أدركوا المصيـر الذي ينتظرهم. وفي هـذه الأثناء، نظر مانكهالالا إلى الوراء كأنّه يطلب مساعدتي. حتى كهامبا تأفّف وأخذ ينبح بعض الوقت محاوِلاً الذود عنهم. لكنّني خيّبت أملهم؛ إذ لم يكن بمقدوري فعل أيّ شيء لهم، نظراً إلى حاجة عائلتي الملحّة للطعام.

فـي أوائل شهر تشريـن الثاني، واصلت الاستيقاظ – كالعادة– عنـد الرابعة صباحاً؛ للعمـل في الحقل وحفر الأثـلام. وفي أحد الأيام، وفي أثناء انتظـاري في الباحة حتى تنهي والدتي تحضير العصيدة، خرج والدي من العتمة، قائلاً: **لا بهالا اليوم.**

قالت والدتي: **ماذا؟**

قال: **يتعيّن علينا ترشيد الاستهلاك. يجب أن يكفينا المخزون أطول مدّة ممكنة.**

كان لدينا حينها أقلّ من كيسي حبوب في المخزن. لذا، كنت أعرف أنّني لن أحصل على عصيدة في اليوم القادم، والذي يليه. كانت وجبة الإفطار أول الضحايا، وقد سألت بعدها: **ما القادم؟**. ولكن، عوضاً عن الشكوى وطرح أسئلة لا معنى لها، تناولت معولي وتوجّهت نحو الحقول للقاء جيفري، حيث أخبرته بحزمة التقشّف التي طالت وجبة الإفطار، قائلاً: **هل تصدّق ذلك؟**.

فسألني: **وهل بدأتم ذلك منذ اليوم؟ لقد بدأنا نحن منذ أسبوعين. لقد اعتدت الأمر.**

كان الجو بارداً في الرابعة صباحاً، وقد أكملنا حفر الأثلام بنشاط كبير. لا بُدّ من أنّ السيما التي تناولتها في الليلة السابقة خدعت معدتي أيضاً، فقد كانت هادئة ولا تقرقر. ولكن، ما إن حلّت الساعة السابعة صباحاً حتى بدأت أتضوّر جوعاً، وكانت الشمس الحارقة تمتص طاقتي كلّها. حينئذٍ، نزعت قميصي، ثمّ ربطته على رأسي، لكنّ وزنه الإضافي زاد من تعبي. الشيء الوحيد الذي سندني من السقوط كان كلمات قالها لي والدي يوماً ما:

– أَحْسِن عمل الأثلام!.

– أنا جائع، لقد خارت قواي.

– فكِّر في العام القادم يا بني. حاوِل.

نظرت إلى أسفل لأكتشف أنّ الأثلام التي حفرتها صغيرة وغير متساوية، كأنّ الذي حفرها أفعى منزلقة. كان ابن عمي في الناحية الأخرى من الحقل يلوّح بمعوله، وهو يسبح في العرق ويتنفس بصعوبة.

قلت: **سيد جيفري، ما رأيك أن تحفر عنّي اليوم، وأحفر عنك غداً؟ ما رأيك في هذه الصفقة؟**

لم ينظر إلى الأعلى. ثمّ قال وهو يلهث: **سأفكّر في الأمر، لكنّ الأمر يبدو لي كصفقة أمس.**

كنت أحاول أن أمازحه وأشدّ من عزيمته، فقد شعرت بالأسى تجاهه أخيراً؛ إذ تغيّرت أحوالـه كثيـراً بعد وفاة والده. ومع أنّه كان يحاول نسيان ما أصابـه أحياناً، إلّا أنّه بدا شارد الذهن في كثير من الأحيان، ولاسيّما حينما كنت أُسِرّ إليه بأحد الأمور المهمة. أخذ جيفري أيضـاً يُـلازِم غرفته يومين متتاليين من دون التحدث إلى أحد. لم تكن صحته على ما يرام، ففي أثناء تردّده على العيادة حديثاً، تبيَّن أنّه مصاب بمرض فقر الدم. وقد اكتشفت – فيما بعـد– أنّ منزلـه لم يخلُ مـن البهالا فحسب، بل مـن الطعام الذي أصبـح شحيحاً بصورة ملحوظة.

صرخـت عليه ذات مرّة: **أنا أمـزح. ولكن صدقاً، أنت لا تبدو على ما يرام يا رجل. لِمَ لا تسترح قليلاً؟ لا ترهِق نفسك بالعمل، استرح.**

فقال وهو يلوِّح بمعوله: **ليس لديّ خيار آخر. أنت تعرف صفقتي.**

الأسـوأ من ذلـك أنّني كنت على يقين بأنّ الظروف التي يمـرّ بها جيفري الآن ستمنعه من الالتحاق بالمدرسة الفصل القادم الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى. كانت والدته تكافح لدفـع رسـوم دراسته، لكنّهـا الآن تحتاج إليه وإلـى شقيقه جيريمايا للعمـل وتوفير الطعام. كنـت أفضّـل ألّا يعرف جيفري أنّني على علم بهذا الأمر. لذا، فقد أبقيت على أسلوبي المرح فـي التعامل معه؛ كقولي له: **عمّا قريب سيذهب كامكوامبـا إلى المدرسة المتوسطة حيث ينتمي، وهو يرتدي بنطالاً، ويمشي بثقة.**

فيعلِّـق جيفري مبتسمـاً: **سيجدنا هنـاك. لـدى أكبر الطلاب سنّاً مخططات كبيرة لكامكوامبا.**

ثمّ سألته: **ماذا لو ذهب بعيداً إلى مدرسة داخلية محترمة، مثل كاسونغو أو تشايامبا؟**

فأجاب: **سنجده. لدينا وسائلنا الخاصة لفعل ذلك.**

قلت: **لن تتمكّن من لمسه.**

قال: **حقّاً؟ انتظر لترى.**

لـم يكـن جيفري الوحيد الـذي تغيّرت أحواله؛ فمنـذ الحصاد الضئيـل أصبح كهامبا بطيئـاً بعضـ الشيء. لم أكن قد تنبّهـت للأمر، لكنّه كان كلباً مسنّـاً عندما أتى مع سقراط بادئ الأمر، وكان قد عاش أفضل أيامه في ضيعة التبغ. كانت الحياة في القرية أكثر صعوبة. وعلـى الرغـم من الطعام الذي كان يحظى به كلّ ليلة بعـد العشاء، فإنني أجزم أنّه كان غير كافٍ.

وبعد أن أصبح كهامبا بطيء الحركة، بدأت فئران الحقول تتفوّق عليه، وأخذت الكلاب الأُخـرى، التي تفوقه قوّة وسرعة، تستحوذ علـى أفضل البقايا من دلاء النفايات. لقد أصبح جسـده النحيـل أكثر ضعفاً، ولاحظت أنّه أصبح ينام مدّة أطول، ويفضّل النوم في الظلّ وراء غرفتي بدلاً من مطاردة الدجاج.

وفي إحدى الأمسيات، قذفت إليه بطبق من السيما، لكنّه عجز عن التقاطه ليسقط على رأسـه، فأخذت أُناكفـه، قائلاً: **ما المشكلة أيّها العجوز؟**. ثـمّ انحنى وأكل الطعام بسرعة. فبعض الأشياء لا تتغيّر وحسب.

فـي أثناء عودتـي أنا وجيفري من الحقـول ذا صباح، مررنا بمزيد مـن الغرباء الذين يجوبون الطرق طلباً للغانيو. لقد قدموا من نتشيسي ومتونثاما، ومن القرى الواقعة بعيداً في التلال. وحمل كثير منهم معاول على أكتافهم، إضافة إلى حزم المبانغو التي تحتوي على آنية الطبخ وبعض الثياب.

في الأوقات العادية، كانت والدتي تأخذ حبوبنا إلى الطاحونة لتدرسها بنفسها. ودأبت على حفظ مجموعة سلال من الدقيق لتلبية احتياجاتنا على الدوام. ولكن، حينما بدأ مخزون الـذرة في المنطقة بالنفاد، أصبـح الناس يشترون الدقيق بكميات ضئيلـة تبلغ كيلوجراماً، ونصف كيلوجرام. كانت هـذه الكميات الصغيرة توضَع في أكياس بلاستيكية زرقاء صغيرة تُسمّـى **ووكمـان** (نسبة إلى مشغل الشرائط المحمول)؛ لأنّها كانت تحوي كمية تكفي شخصاً واحداً فقط. كان الووكمان جهاز يستخدمه سكان المدن، لا المُزارِعين وعائلاتهم.

وفـي هذه الأثنـاء، كان موسم المانجو قد ولّـى. لذا، لجأ كثير من الرجـال إلى العمل لقـاء بعض أوراق من الكاسافا أو المنهوت، وهي نبتة خضار جذرية يمكن طبخ أوراقها، مثل

السبانـخ أو السلجم، فضلاً على تجفيف درناتها وطحنها لتصبح دقيقاً. وتُعَدّ الكاسافا نبتة شعبيـة ذائعة الصيت في مناطق أُخرى من إفريقية، ولاسيّما الكونغو. ولكن في مالاوي، فإنّ الكاسافا – شأنها شأن الغاغا – تُهمَل حين تكون السيما متوافرة.

أيضاً أخذ هؤلاء المتجوّلين يردِّدون: «**غانيو لقاء ووكمان، غانيو لقاء كاسافا**».

وبوجـه عـام، كان كثيـر مـن الأشخاص يتوجّهـون إلى منطقتنـا؛ بحثاً عـن عمل في الشركات، لكنّهم لم يكونوا على دراية بأنّ عمّال الشركات يتسكعون في السوق من دون عمل، آملين بوقوع معجزة.

وكثيـراً مـا كان الغربـاء يسألـون: **معـذرة، أيـن يمكننـي إيجـاد الشركـة الموسومـة بالرقم 24؟**.

فيجيب أحد العمّال: **لا تُتعب نفسك؛ فلا شيء هناك. أنا متأكّد؛ فأنا أعمل هناك.**

في حين كان الواغانيو الجائعون يعبرون طرقات السوق، ويمرّون ببيوت الأغنياء، كانت روائح السيما والدجاج المطبوخ وقت الغداء تزكم أنوفهم، غير آبهة بالجوع المحيط بها من كلّ ناحيـة. ولمـا كان كثير من المُزارِعين أخذوا يبيعون حيواناتهم، فقد أصبح سعر الدجاج زهيداً، بحيث يمكن لكلّ مَنْ يملك المال شراؤه.

فـي الوقت الذي يبحـث فيه الرجال عن عمـل، تجمّعت زوجاتهـم وأبناؤهم أمام بيت غيلبرت طلباً للأُعطيات. كان نحو أربعين منهم يصلون هناك كلّ صباح، كما مرّ المئات منهم منـذ بدء المشاكل فـي آب. انتظر بعضهم طويلاً للحصول علـى ووكمان من والدة غيلبرت، في حين وصل آخرون مُنهكين، ولم يقووا على مواصلة الانتظار. لقد نشروا بطانياتهم تحت الأشجار وطهوا السيما، ثمّ غادروا بعدما استعادوا بعضاً من قوتهم. وانهار بعض آخر منهم على الطريق، وأصبحوا في أمسّ الحاجة إلى العناية. لقد أصبح بستان اليوكاليبتوس في بيت غيلبرت يضم خليطاً من أماكن النوم.

وفـي هذه الأثناء، كان الرئيس مولوزي مشغـولاً بالتنقّل عبر البلاد بطريقته المعتادة، مانحـاً أُعطيـات قليلة من المال؛ لإظهار أنّه رجل حكيم. وقـد نُظِّمت لذلك تجمّعات ضخمة

للموظفيـن الأوفياء، تخلّلها بعض الرقصات والعروض العسكرية وكثير من الطعام. وحيثما حلّ الرئيس، كان يلقي للفقراء بدقيق أو مال يكفيان لتذكّره في الانتخابات المقبلة.

رأيتـه في مدرسـة ويمبي الابتدائية عـام 1999م خلال إحدى زياراتـه الخاطفة. كان هنالـك جوقة غنائيـة نسائية وغولي وامكولـو، حيث وهب كلّاً من الراقصيـن ورقةً من فئة خمسين كواتشـا. وأصطف السياسيون المحلّيون؛ للحصول علـى أُعطياتهم. كانت تلك أول مرّة أرى فيها الرئيس شخصيّاً. لقد كان أصلعَ وسميناً، وعندما نهض وسار باتجاه المنصة، بدت رجلاه القيصرتان لا تتناسب مع جسده المدوّر.

أعتقِـد أنّه قـال: **آسف لرؤية هـذه المدرسة على حالهـا هذا. علينا هـدم المكان كله وإعادة بنائه من الصفر، نبنيها مرّة أخرى قوية راسخة! كما تحتاج بيوت المدرّسين إلى الترتيب، ويحتاج الطلاب إلى مقاعد وكتب جديدة!.**

أخـذ الحضـور يهتفون ويصفّقـون لدى سماعهم ذلـك. ولكن، بدلاً مـن شراء مقاعد جديـدة، أرسل مولوزي رجالاً إلى بستـان اليوكاليبتوس، لقطع بعض الأشجار؛ لصنع مقاعد منهـا. وحتى عندما فعلوا ذلك، كان عددها ما يـزال غير كافٍ. أمّا المدرِّسون فلم يحصلوا علـى بيوت جديـدة قطّ، وكلّ ما قدّمـه الرئيس للمدرسة كان طبقة طـلاء جديدة، وصفائح معدنية (زينكو) جديدة للسقف.

كان هذا الرئيس هو نفسه الذي وعد كلّ شخص في مالاوي بالحصول على زوج أحذية جديـد إن هو فـاز في الانتخابـات. أعتقد أنّكم تخيّلتـم ما حدث بعد ذلك. فبعـد أن صوَّت لـه الناس وفاز فـي الانتخابات، بدأ الجميـع يسأله: **أين أحذيتنا؟**، فخـرج عليهم على أثير الإذاعـة، وقال شيئاً مـن قبيل: **سيداتي سادتي، هـل أبدو لكم مجنوناً؟ كيـف لي أن أعرف مقاس أقـدام سكان مالاوي كافـة؟ لم أعدكم يوماً بأحذية.** كما تـرون فرئيسنا كان رجلاً مرحاً.

علـى الرغم من تصاعد حدّة الغضب حيال اختفاء فائض الذرة، فإن الحكومة لم تقل شيئاً عن هذا الموضوع عبر المذياع. ولم تقدِّم أيّ حلول ناجعة لمشكلة الجوع المتفاقمة التي حاقـت بالجميع. لـذا، فعندما أعلن الرئيس مولوزي أنّه سيتوقّـف في كاسونغو لتعيين زعيم

محلّـي جديد، طلب جميع الزعماء الفرعيين فـي المنطقة إلى والد غيلبرت الوقوف والتكلّم نيابـة عنهـم؛ إذ كان والد غيلبرت مسلمـاً، حاله حال الرئيس، وقد يساعـد ذلك على تلبية بعض مطالبهم.

قالوا له: **أنتَ خطيب مُفوّه، ومحسوب عليه. عليك أن تُعنّفه بتركنا وشأننا.**

وقـف الآلاف تحت أشعة الشمس يـوم الموكب، على أمل التمكّن مـن سماع ما سيقوله الرئيس بخصوص الأزمة. ولكن، بدلاً من ذلك، شاهدوا كثيراً من الرقصات، واستمعوا إلى كثير من الخطابات التي امتدّت ساعات عدّة تحدث أصحابها عن قوة الرئيس وعظمته، وعن تكرّمه بالموافقة على المشروعات الجديدة التي ستحظى بها المنطقة، مثل: بناء مراحيض جديدة في بعض القرى، وحفر آبار جديدة.

كان الرئيـس حينهـا يترأّـس أيضـاً منظمة تطويـر دول جنوب إفريقيـة، وهي تحالف اجتماعـي اقتصـادي يضم خمس عشـرة دولة في جنوب قـارة إفريقية. وفـي أثناء رئاسته للمنظمـة، اندلعت حروب شديدة مُهلِكة في أرجاء أُخرى من القارة، مثل: أنغولا، وبوروندي، والسودان. وقد انتقلت الإبادة الجماعية التي أودت بحياة أكثر من ثمان مئة ألف شخص من قبيلـة توتسي في رواندا إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية، مُتسبِّبة في اندلاع حرب هناك، حتـى إنّ مولوزي استضاف قادة من رواندا والكونغـو ببالنتاير، في محاولة للتوسّط وإحلال السـلام. وبالنظر إلى جهـوده الملحوظة في قارة إفريقية، فقـد كان محيِّراً عجزُه عن رؤية المشكلات التي تحيق ببلده.

علـى أيّ حـال، فبعد ساعة مـن الرقص والغناء، حـان الوقت أخيراً كـي يتحدث والد غيلبـرت، فنهـض عن مقعـده الذي كان أمـام الرئيس مباشـرة، ووقف علـى المنصة أمام النـاس، ثمّ قال مُلتفِتاً إلى الرئيس: **سيادة الرئيس، أودّ تهنئتك ليس فقط على إنجازاتك في مـالاوي، بـل في شتّـى بقاع قـارة إفريقية العظيمة. فقـد سمعنا عن كلّ مـا تفعله في الكونغو وعن نجاحاتك هناك. نحن فخورون جدّاً برئيسنا. ولكن أرجوك، عليك أن تفهم أنّنا نخوض حرباً من نوع آخر في مالاوي، وهي حرب ضد الجوع.**

ثمّ طلب إلى الرئيس إيقاف تمويل الآبار والمراحيض، واستغلال المال لشراء الحبوب، بقوله: **لنكن منطقيين؛ ما حاجتك إلى المرحاض إذا لم تجد شيئاً تأكله أصلاً؟**.

انفجر الحضور بتصفيق حارّ مطوّل لدرجة أنّ المتحدث الآتي اضطر إلى الانتظار بعض الوقت حتى هدأ الجميع. وحين اعتلى هذا المتحدث المنصة، أخذ فقط يكيل المديح للرئيس، فارتفع صوت الحضور استهجاناً.

ثمّ صرخوا قائلين: **اجلس، فما تقوله غير مفيد!. لقد عبَّر عن حالنا الزعيم ويمبي!. يا له من سياسي غبي! حين تظهر السيما تنتفي السياسة.**

بعد ذلك بوقت قصير، وحين نهض الرئيس للتحدث، اقترب بعض رجاله (كانوا يرتدون زيّاً رسميّاً) من والد غيلبرت، وطلبوا إليه الذهاب معهم. كان الزعيم يعرف أنّ من عادة الرئيس توزيع الأُعطيات في مثل هذه المناسبات. لذا، فقد تحمَّس وقال في نفسه: **لا من بُدّ أنّهم سيعطوننا مالاً، لا بُدّ من أنّ خطابي آتى أُكله**».

اقتاد ستةُ رجال الزعيمَ خلف مبنى قرب المنصة، وما إن وصلوا إلى هناك حتى واجهوه.

سأل أحدهم غاضباً: **لِمَ تفوَّهت بتلك الترهات؟**

وقبل أن يتمكّن الزعيم ويمبي من الإجابة، طرحوه أرضاً، وبدأوا ضربه بالعصي والهراوي. وبعد دقائق عدّة، ترك (البلطجية) الزعيم على الأرض غارقاً بدمائه، وانسلوا بين الحضور. وحين عثر أحد الأصدقاء على الزعيم ويمبي بعدها بدقائق، رفض هذا الأخير الذهاب إلى المستشفى؛ خشية أن يقتله (البلطجية) في فراشه هناك. عندما عاد غيلبرت إلى البيت ظهيرة ذلك اليوم، شاهد والده ممدّداً على الأريكة، وهو عاجز عن الحركة. وفي المساء كانت قد ظهرت كدمات كبيرة أرجوانية على صدره وبطنه وذراعيه.

مرّت أسابيع عدّة لم يفارِق فيها الزعيم الأريكة أو السرير في محاولة للتعافي من إصاباته. بعد ذلك، بدأ بالتسلل إلى العيادة الواقعة على أطراف المنطقة، وكان حريصاً

أشـدّ الحرص على إخفاء مكان وجوده. ولم يُخبِـر أحداً بنتائج الفحوص الكثيرة التي خضع لها. لقد عانى الزعيم ويمبي في صمت؛ خوفاً من أن يعرف رجالات مولوزي بأفعاله.

كان تحوّل الأحداث ذلك مخيفاً بالنسبة إليّ؛ فزعيمنا كان مثل والدنا جميعاً، والرجل الذي يحمي منطقتنا الصغيرة، ويمثّلنا أمام بقية مناطق البلاد. وحين سمعنا أنه قد تعرّض للضرب، شعرنا بأنّه اعتُدِي علينا جميعاً، وأنّنا لم نعد نأمن على أنفسنا من أيّ اعتداء. وإذا كانت الحكومة قد تعاملت مع زعيمنا بتلك الطريقة، ومع الجوع الذي يلوح في الأفق، فما نوع المعاملة التي سيتلقّاها أمثالنا من عامة الشعب؟